العنوان:	قضايا تخص الزمن والمهن في الغرب المسيحي الوسيط من خلال كتاب المؤرخ جاك لوغوف
المصدر:	مجلة دفاتر تاريخية
الناشر:	جامعة سيدى محمد بن عبداالله - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مختبر البيليوغرافيا التحليلية والتوثيق للتراث المغاربي
المؤلف الرئيسي:	طهر، المصطفى
المجلد/العدد:	ع 1
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2010
الشهر:	خريف
الصفحات:	43 - 48
رقم MD:	513232
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	الغرب، العصور الوسطى، الزمن، العمل، لوغوف ، جاك
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/513232

قضايا تخص الزمن والمهن في الغرب المسيحي الوسيط
من خلال كتاب المؤرخ جاك لوغوف[1]

ذ. المصطفى طهر
كلية الآداب ظهر المهراز - فاس

يتعلق الأمر بتقديم وترجمة لبعض مضامين كتاب **"من أجل عصر وسيط آخر: الزمن، العمل والثقافة في الغرب "** لصاحبه المؤرخ الفرنسي الراحل جاك لوغوف أحد أقطاب مدرسة الحوليات الشهيرة. فقد خصص المؤرخ المذكور حيزا هاما من كتابه لدراسة إشكاليات تخص الزمن والعمل في الغرب المسيحي خلال العصور الوسطى، وعلى رأسها قضايا تهم نظرة الكنيسة والتاجر للزمن، والتحولات التي طرأت على زمن العمل في ظل أزمة القرن الرابع عشر و تطور العقليات والمواقف فيما يخص المهن. ويذكر جاك لوغوف في تقديمه للكتاب (ص12-13) أن تناوله بالدراسة لمفهومي الزمن والعمل نابع من كون المواقف المتخذة من هذين الأمرين تعتبر من الأوجه الأساسية لبنيات وصيرورة المجتمعات. ولهذا، فدراستها، بالنسبة للمؤلف، يمكن أن تشكل مرصدا لفحص تاريخ تلك المجتمعات.

أ- زمن الكنيسة وزمن التاجر:

عالج جاك لوغوف في المحاولة الثانية (ص47-65) من محور "الزمن والعمل" مفهوم الزمن لدى كل من الكنيسة والتاجر في الفترة التاريخية الممتدة من القرن12 إلى القرن15م.

استهل المؤلف تناوله للموضوع بالإشارة إلى كون التاجر لم يكن، في العصر الوسيط، محتقرا من طرف كل مكونات المجتمعات الغربية كما ادعى ويدعي بعض المؤرخين ذلك، ثم اهتم بإبراز الغموض الذي شاب موقف الكنيسة من التاجر. فالكنيسة، في نظر جاك لوغوف، حمت وشجعت التاجر، ولكنها تركت شكوكا خطيرة تلقي بضلالها على شرعية أوجه أساسية من نشاطه. بعض تلك الأوجه تمس في العمق نظرة إنسان العصر الوسيط لقضايا العالم، والمقصود بالإنسان هنا الأشخاص الذين كانت لهم آنذاك قذرات ثقافية وإمكانات عقلية للتفكير في المشاكل المهنية وانعكاساتها أو تأثيراتها الاجتماعية والأخلاقية والدينية.

يذهب المؤلف إلى أن من أهم مآخذ الكنيسة على التاجر استغلاله للزمن الذي هو ملك لله وحده من أجل الحصول على الربح. ففي بداية القرن14 أقر أحد ممثلي التنظيم الفرنسيسكاني أنه لا يحق للتاجر، في نفس العملية التجارية، أن يحصل ممن يشتري البضاعة دينا على ربح أكبر مما يحصل عليه ممن يدفع ثمن البضاعة على الفور، لأنه لو فعل ذلك سيكون قد باع الزمن، وبالتالي اقترف الربا ببيعه لشيء ليس ملكا له. بتبنيها لهذا الموقف وضعت الكنيسة الحياة الاقتصادية ككل في فجر الرأسمالية التجارية موضع تساؤل ونقاش. فبرفضها للربح على الزمن واعتباره ربا لم تكن الكنيسة تهدف إلى مهاجمة الفائدة كمبدأ فحسب، بل إلى تقويض كل إمكانية لتطور نظام القروض. صحيح أن الكنيسة قدمت مجموعة من التنازلات تمثلت في قبول التطور التاريخي للبنيات الاقتصادية والمهنية، ولكن الإعداد النظري، على المستوى الشرعي (canonique) أو اللاهوتي، لهذا التكيف مع الواقع السوسيو-اقتصادي تم ببطء وبصعوبة.

وهكذا استمر التعارض بين زمن الكنيسة الذي هو ملك لله وحده لا يحق استغلاله بهدف الكسب وزمن التاجر الذي هو فرصة أو مناسبة لتحقيق الربح قائما طيلة الفترة التاريخية الممتدة من القرن 12 إلى القرن 15، وهي الفترة التي تشكلت (أو تهيأت) فيها إيديولوجية العالم الحديث تحت ضغط تسرب بنيات وممارسات جديدة.

بعد هذا التقديم عالج جاك لوغوف التحولات التي طرأت على نظرة كل من الكنيسة والتاجر لمفهوم الزمن.

بالنسبة للكنيسة، لاحظ المؤلف بأن الإكليروس (les clercs) نظروا إلى الزمن انطلاقا من نصوص الكتاب المقدس (les textes bibliques) والسنة (la tradition) الموروثة عن المسيحية الأولى وآباء الكنيسة ومؤولي ونساخي الكتاب المقدس خلال العصر الوسيط الأعلى.

إن زمن الكتاب المقدس (la Bible) والمسيحية الأولى، في نظر المؤلف، هو، قبل كل شيء زمن لاهوتي يبدأ مع الله ويخضع له، أي زمن متمدد إلى ما لا نهاية. ومع العهد الجديد (Nouveau Testament) أصبح للزمن بعدا تاريخيا أي له بداية (الخليقة) ومركزا (ولادة المسيح) ونهاية (نهاية العالم l'Apocalypse) وهدفا (الخلاص). وبالتالي، أضحى تاريخ الماضي منذ الخليقة إلى مجيء المسيح، كما روي في العهد القديم (Ancien Testament)، جزءا من تاريخ الخلاص، في حين لم يعد الزمن سوى قسطا من الأزل (l'Eternité).

[1] Jacques LE GOFF, Pour un autre Moyen Age : temps, travail et culture en Occident (18 essais), Gallimard, Paris, 1977 -

بناء على الأيام الستة التي خلق الله فيها الكون، قام المؤرخون الإكليروس (les clercs historiens) بتقسيم تاريخ الإنسانية إلى ستة عهود تربط فيما بينها أحداث هامة تمثل المبادرات الإلهية في زمن البشر، وهي أحداث الخلاص. وفي مقارنة مع المراحل الستة لعمر الإنسان خلص الإكليروس إلى أن العهد السادس، الذي يبدأ مع ولادة المسيح، يوافق مرحلة الشيخوخة مما يعني قرب نهاية العالم. وقد خصص المؤرخون المسيحيون حيزا هاما من كتاباتهم لمشكلة نهاية العالم التي أصبحت في منعطف القرنين11 و12 للميلاد أحد الأوجه الأساسية لمفهوم الزمن. وابتداء من القرن12 تصدعت الإطارات التقليدية للفكر المسيحي حول الزمن والتاريخ بحيث أصبح الشغل الشاغل للمؤرخين الإكليروس والرهبان هو ضبط تاريخ العصر المسيحي بدءا بسنة تجسد أو ولادة المسيح (l'Incarnation du Christ).

بالنسبة للتاجر، يرى جاك لوغوف أن نشاطه خضع، في بداية العصور الوسطى، "للزمن المناخي" (Temps météorologique) : دورة الفصول، تقلبات الجو والكوارث الطبيعية. ولكن، لما انتظمت شبكة التجارة واتسع نطاقها، ما بين القرنين12 و15، سواء في مجال بحري الشمال والبلطيق الذي هيمن عليه تجار عصبة الهانزا الألمانية أو في المجال المتوسطي حيث هيمن تجار المدن الإيطالية (جنوة، البندقية...)، أصبح الزمن موضع تقدير وضبط. فمدة السفر برا أو بحرا من مكان إلى آخر، ومشكل أثمان أو أسعار البضائع التي قد ترتفع أو تنخفض في نفس العملية التجارية وما يترتب عن ذلك من زيادة أو نقصان في الأرباح، والمدة الزمنية اللازمة لإنتاج وتسويق البضاعة، كلها أمور اهتم بها التاجر وأخضعها لتنظيمات أو ترتيبات دقيقة. كما أن تعقيدات عمليات الصرف المترتبة عن استعمال نقود وعملات مختلفة ذهبية وفضية وعن تقلب الأسعار بفعل تغير القيمة التجارية للنقد فرضت على التاجر اعتماد زمن مضبوط بشكل أفضل. فقوانين الاتحادات أو النقابات والوثائق التجارية المحضة – دفاتر الحسابات، الرحلات التجارية، الممارسات التجارية والكمبيالات التي بدأت تنتشر في أسواق منطقة شمبانيا (les foires de Champagne) في القرنين 12-13- تدل على أن السير الحسن للصفقات التجارية كان في حاجة إلى القياس الصحيح أو الدقيق للزمن.

وقد ذهب المؤرخ الفرنسي إلى أن التطور التكنولوجي الذي عرفه القرن14، والمتمثل في اختراع الساعة الميكانيكية(l'horloge)، أدى إلى بروز "زمن جديد" يمكن قياسه أي مخالف للزمن الطبيعي الذي يصعب توقعه والتحكم فيه. وسرعان ما أصبحت الساعة الميكانيكية وسيلة لهيمنة التجار على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في العديد من المدن، وأداة لتنظيم زمن العمل الذي أضحى يبدأ وينتهي في ساعات محددة سلفا.

هكذا بدأت، في نفس الوقت أو التوقيت، عمليتا ترشيد وعلمنة الزمن. فقد اعتمد التجار والصناع في أغراضهم الدنيوية زمن الساعة الميكانيكية الأكثر دقة بدلا عن زمن الكنيسة الذي يسير على إيقاع القداديس الدينية ورنات أجراس الكنائس ويتم قياسه، عند الاقتضاء، بواسطة ساعات شمسية (cadrans solaires) غير دقيقة ومتغيرة أو بواسطة ساعات مائية (clepsydres) غير متقنة الصنع. وبالتالي أصبح الغرب يعيش على إيقاع زمنين: زمن الساعات الميكانيكية أو الزمن الحضري الدقيق والمعقد، وزمن الأجراس أو زمن البوادي البسيط. لكن، ورغم دور الساعات الميكانيكية في مساعدة التاجر على اكتشاف ثمن أو قيمة الزمن في علاقته بالمجال، أي ثمن المدة الزمنية في علاقتها بالمسافة المقطوعة، فإن التاجر، حسب المؤلف، لم ينجح في التحكم بشكل جيد في الزمن الذي ظل متقطعا (discontinu) بفعل التأخر التقني وتقلب الأحوال الجوية التي كانت لها تأثيرات قوية على الأسعار، وبالتالي على هامش الربح والخسارة الذي كان يتوقف أيضا على تجربة وذكاء التاجر وقدرته على التحايل والخداع.

ولم يفت المؤلف الوقوف على المحاولات التي قام بها التاجر المسيحي ومنظري العقيدة المسيحية من أجل التأقلم والتكيف مع التغيرات والتحولات التي طرأت على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الغرب المسيحي. فالتاجر المسيحي لم يتخلص من زمن الكنيسة، بل نظر إليه كأفق لوجوده، ولكنه حرص على الفصل بين الزمن الذي يعيش فيه دينيا والزمن الذي يتحرك فيه مهنيا. ففي أفق الخلاص قبل التاجر تعاليم وإرشادات الكنيسة واقتطع جزءا من أرباحه للمساهمة في الأعمال الخيرية، ولكن ذلك لم يمنعه من استعمال أو استغلال الزمن للحصول على الربح. فكلا الهدفين- الربح والخلاص- مشروعين في نظر التاجر. وبذلك يكون التاجر قد فصل بين الزمنين الديني (الكنسي) والمهني، ولكنه استمر-لزمن طويل- يخلط بين مخططات أو تدابير العناية الإلهية وازدهار أو نماء ثروته. ولوضع حد لهذا التناقض الذي كان يعيشه التاجر باطنيا على مستوى الضمير (la conscience) وظاهريا على مستوى السلوك (le comportement)، عملت الكنيسة على تطوير العقيدة والتشريع الكنسي والتفكير اللاهوتي- الأخلاقي حول مسألة الربا. وبفضل الجهود التي بذلها الفيلسوف وأستاذ اللاهوت أبيلار (Abélard) في القرن الثاني عشر وتنظيمات الإخوان الرهبان في القرن 13، نجحت الكنيسة في جعل الندم الداخلي أو الشعور بالذنب والاعتراف به أساسا للتوبة، وبالتالي تمكنت من جعل زمن الخلاص وزمن العمل يلتقيان في وحدة الحياة الفردية والجماعية للمسيحيين. وفي نهاية القرن 13 وبداية القرن 14، حصل تحول هام في موقف الكنيسة حيث أقر أحد الفرنسيسكانيين بأنه لا يمكن قبول الرأي التقليدي القائل بأن "الزمن لا يمكن أن يباع". وبالإضافة إلى المرونة في موقف الكنيسة من الربا، لم يعد زمن الصيام والتعفف والراحة يوم الأحد تعليمات يجب تطبيقها حرفيا، بل مجرد توصيات (recommandations) يتوقف مدى تطبيقها على ضمير كل فرد من أفراد المجتمع.

إلا أن هذا التوازن بين الزمن الدنيوي (زمن العمل) والزمن الديني (زمن الخلاص) الذي حاول علماء اللاهوت تحقيقه في القرن 13 انهار في القرنين 14 و15 بسبب إخفاق التصور اللاهوتي التقليدي للزمن. وكان ذلك إيذانا بنهاية العصر الوسيط وبداية عصر النهضة الأوروبية حيث سيتحرر زمن التجار من الزمن التوراتي ويصبح بإمكان التاجر استعمال الزمن واستغلاله لتحقيق الربح دون الشعور بالذنب.

يعزو المؤلف هذا التحول الذي أشر على نهاية العصر الوسيط وبداية عصر النهضة الذي احتل فيه التاجر مكانة هامة اقتصاديا وسياسيا وثقافيا، إلى تأثيرات خارجية إغريقية وعربية وإلى اجتهادات أساتذة جامعات أكسفورد وباريس وجنوة والبندقية ولوبيك (Lubeck) .

ب-زمن العمل في "أزمة القرن 14:

تناول جاك لوغوف في المحاولة الثالثة (ص66-79) من محور "الزمن والعمل" إشكالية "زمن العمل" في ظل أزمة القرن الرابع عشر، والكيفية التي تم بها الانتقال من الزمن الوسيطي أو الوسطوي إلى الزمن الحديث وانعكاسات ذلك على صيرورة مجتمعات غرب أوربا.

انطلق المؤلف في معالجته لهذه القضية من منتصف القرن 14 الذي شهد استبدال الأجراس الكنسية بالساعات الميكانيكية كوسيلة أو أداة لقياس الزمن. ويتمثل السبب الكامن وراء هذا التغيير الهام في حاجة المجتمع الحضري إلى التكيف مع التطور الاقتصادي أو، بالأحرى، مع شروط العمل بالحواضر. وبالتالي، فالأمر لا يتعلق هنا بانتقال من الساعة القديمة(l'heure antique) إلى الساعة الحديثة(l'heure moderne) فحسب، بل من التقسيم الكنسي إلى التقسيم اللائكي (العلماني) للزمن.

في نظر المؤرخ الفرنسي مرت التحولات التي طرأت على زمن العمل في العصور الوسطى بعدة مراحل أو محطات، يمكن تلخيصها فيما يلي:

- شكل اليوم (la journée) وحدة زمن العمل في الغرب الأوروبي الوسيط.في البداية تم اعتماد اليوم الفلاحي الذي يبدأ مع شروق الشمس وينتهي بغروبها حيث اعتبر العمل الليلي بدعة تحارب بالمنع أو الغرامة. ونظرا لارتباط زمن العمل بالاقتصاد الفلاحي، فقد تميز- في القرون الأولى من العصر الوسيط- بالبطء وانعدام الدقة.

- حدث أول تحول هام في زمن العمل في الفترة التاريخية الممتدة من القرن 10 إلى القرن 13 وتأكد في القرن 14. ويتعلق الأمر بانتقال وقت الراحة والأكل (la none) تدريجيا من الساعة الثانية بعد الزوال إلى الساعة الثانية عشرة زوالا (2h – midi) ليتم بذلك اعتماد اليوم كجزء من زمن العمل.

- مع نهاية القرن 13 دخل زمن العمل في شكله التقليدي في أزمة حيث بدأ العمال يطالبون بتمديد يوم العمل بهدف رفع الأجور لمواجهة ارتفاع الأسعار المترتب عن التحولات الطارئة في مجال النقد. وفي بداية القرن 14، استجاب ملك فرنسا (Philippe le Bel) لطلب العمال بالموافقة على العمل الليلي.

- ووجه التحرك العمالي بتحرك مضاد قام به أرباب العمل الذين عمدوا إلى استعمال أجراس العمل لتحديد أوقات الشروع في العمل، والتوقف لتناول وجبات الأكل، ومباشرة العمل من جديد ومغادرة أماكن العمل. وقد احتد الصراع بين العمال وأرباب العمل حول زمن العمل في قطاع النسيج الذي كان يعاني من أزمة خانقة مقارنة مع القطاعات الصناعية الأخرى بسبب ضخامة حصة الأجور وأرباح أرباب العمل في سعر التكلفة (le prix de revient). فأمام إصرار أرباب العمل على استعمال الأجراس لفرض النظام في العمل، اندلعت انتفاضات العمال الذين أخذوا يستولون على تلك الأجراس للإعلان عن غضبهم أو للتحريض على التمرد والعصيان. ولمواجهة هذه التصرفات، اتخذت البرجوازية والسلطات المحلية والمركزية تدابير متشددة تأرجحت بين فرض الغرامة والحكم بالإعدام على زعماء الحركة العمالية.

- رغم قسوتها، لم تحل الإجراءات المتخذة من قبل البرجوازية والسلطات دون تحول مدة العمل إلى رهان لنضالات العمال. ففي نهاية القرن 14 قاد عمال قطاع الكروم كفاحا ضد مشغليهم من سادة ورجال كنيسة وبرجوازيين للمطالبة بتقليص يوم العمل، وقدموا دعوى أو شكوى أمام برلمان باريس. كان غرض العمال من وراء المطالبة بتقليص زمن العمل تحقيق ثلاثة أهداف: حماية أنفسهم ضد طغيان أرباب العمل، الحصول على زمن للراحة والتسلية (le temps de loisirs) وآخر لمزولة أعمال أخرى في إطار العمل الأسود (le travail noir).

- في نهاية القرن 14 أضحى زمن الأجراس زمنا حضريا غايته الاستجابة للحاجات الاقتصادية والإدارية والدفاعية أو الأمنية للحواضر. ولهذا لم تعد الأجراس تعلق في الكنائس فقط، بل انتشرت في ورشات العمل والأسواق والمنشآت الإدارية والعسكرية من بلديات وأبراج مراقبة. وبذلك أصبح سكان الحواضر يعيشون على إيقاع زمنين: زمن ديني أو كنسي (أجراس الكنائس) وزمن علماني (أجراس العمل).

- في الربع الثاني من القرن 14 بدأ التقدم الحقيقي على المستوى التقني حيث تم اختراع وانتشار الساعة الميكانيكية (l'horloge mécanique) التي مكنت من تقسيم اليوم إلى أربعة وعشرين جزءا أو ساعة. وسرعان ما انتشرت الساعات الميكانيكية في المناطق الحضرية الكبرى التي كانت تنتشر بها صناعة النسيج كشمال إيطاليا، وكطلونيا، وشمال فرنسا، وجنوب انجلترا ، والفلاندرا وألمانيا. وقد أدى الانتشار الواسع للساعات الميكانيكية في المناطق الممتدة من نورماندي إلى لومبارديا في نهاية العصر الوسيط إلى اعتماد الساعة المؤلفة من ستين دقيقة.

- في القرن 14 دائما أقدم الأقوياء من سادة وأمراء على استخدام الزمن الجديد وسيلة للتسلية وأداة للحكم. ففي سنة 1370، وبأمر من ملك فرنسا شارل الخامس، أصبحت كل ساعات (les horloges) باريس تعمل

وفقا لساعة القصر الملكي مما يدل على أن الزمن الجديد أضحى زمن الدولة.

على الرغم من هذا التحول الهام الذي طرأ على زمن العمل في نهاية القرن 14 وخلال القرن 15، فإن الزمن المرتبط بإيقاعات الطبيعة والنشاط الزراعي والعبادة ظل، حسب المؤلف، الإطار الزمني الأساسي في حياة سكان غرب أوروبا. فقد استمر رجال عصر النهضة يعيشون في زمن غير ثابت وغير محدد، زمن حضري وليس وطني. ومما يدل على ذلك اختلاف نقطة انطلاق الزمن الجديد من مكان إلى آخر: الشروق أو الغروب، منتصف النهار أو منتصف الليل. فكان ذلك سببا في إحداث البلبلة والحيرة لدى السكان وخاصة لدى المسافرين في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وهذا دليل على أن زمن ما قبل التصنيع لم يكن قد انفصل بعد عن الزمن الطبيعي). زد على ذلك أن الساعات الميكانيكية كانت هشة (fragiles)، متقلبة (capricieuses)، غير منتظمة (irrégulières) ومعرضة للعطب بشكل كبير.

لكن النقائص والمحدودية المشار إليها آنفا، لا تقلل، في نظر جاك لوغوف، من أهمية التحولات التي طرأت على مفهوم الزمن و طرق استعماله. فالتصدع الذي أصاب الإطار الكرونولوجي هو، في نفس الوقت، تصدع ذهني وروحي، إذ لم يعد الزمن جوهر أو كنه الأشياء، بل مجرد مفهوم في عقل أو ذهن الإنسان يحدده ويقيسه وفقا لحاجاته. وبالتالي، أصبح الإنسان، في نظر علماء اللاهوت، هو المسئول عن حسن أو سوء استعمال الزمن، لدرجة أضحت معها إضاعة الوقت خطيئة أو معصية خطيرة وفضيحة روحية. ففي النصف الأول من القرن الرابع عشر، ذهب أحد الرهبان الدومينيكانيين إلى حد القول بأن "البطال (l'oisif) الذي يضيع وقته لا يستحق أن يعتبر إنسانا".

وهكذا ولدت، حسب المؤلف، إنسية أو نزعة إنسانية (un humanisme) قائمة على زمن مضبوط بشكل أفضل. فإنسان الزمن الجديد بطبيعته أنسي (humaniste)، تاجر أو قريب من أوساط التجار يعرف قيمة الزمن ويحسن استعماله. وبذلك أصبح الزمن في فجر عصر النهضة ملكا للإنسان بعد أن كان ملكا لله وحده.

ج- المهن المشروعة والمهن غير المشروعة:

اهتم جاك لوغوف في المحاولة الخامسة (ص91-107) من "محور الزمن والعمل" بتسليط الضوء على ما شهده الغرب المسيحي من تطور في مواقف الأطراف الفاعلة من المهن في العصر الوسيط.

في البداية بين المؤلف بأن الغرض من هذه المحاولة هو دراسة مسألة تدرج المهن في المجتمع الغربي في العصر الوسيط. إن وجود مهن شريفة ومهن حقيرة ومهن مشروعة وأخرى غير مشروعة أو محرمة هو، في نظر جاك لوغوف، تعبير عن حقائق اقتصادية واجتماعية، بل، أكثر من ذلك، حقائق ذهنية أو عقلية. فمن بين المهن التي اشتهر بها العصر الوسيط، بعضها تمت إدانته بدون تحفظ (الربا والعهارة)، وبعضها أدين في بعض الحالات فقط، مثل أعمال السخرة (opera servilia) التي كانت ممنوعة يوم الأحد، والتجارة التي كانت محظورة عندما يكون الهدف منها تحقيق المصلحة الخاصة، والأنشطة المحرمة على الإكليروس. ورغم وجود فوارق قانونية بين المهن المحرمة (negotia illicita) والمحن الحقيرة (vilia officia) ، فإن الصنفين معا يدخلان ضمن فئة المهن المحتقرة.

من بين المهن التي كانت محتقرة في العصر الوسيط ذكر المؤلف: أصحاب الفنادق، الشعراء المنشدين (les jongleurs)، البهلوانيين (les histrions) ، السحرة، الخيماويين، القوادين (les souteneurs)، العاهرات، العدول، الجزارين، التجار، العاملين في قطاع النسيج، الحلوانيين، البستانيين، الإسكافيين، الرسامين، صيادي الأسماك، الحلاقين، حراس الحقول، رجال الجمارك، الصرافين، الخياطين، العطارين، الكراشين أو بائعي الكروش (les tripiers) ، الطحانين (les meuniers) وغيرهم.

يعزو جاك لوغوف الاحتقار والمنع اللذين طالا بعض المهن والمهنيين إلى بقايا عقليات بدائية كانت ما تزال راسخة في الأذهان. ويتعلق الأمر بمجموعة من المحظورات (les tabous) كانت سائدة في المجتمعات البدائية تهم الدم والقذارة والمال. فحظر الدم (le tabou du sang) كان وراء احتقار الجزارين، والجراحين، والحلاقين، والصيادلة الذين امتهنوا الفصادة، والأطباء والجنود؛ وحظر القذارة (le tabou de l'impureté) انعكس سلبا على العاملين في قطاع النسيج (الدعاكين والصباغين)، وفي الفنادق، والمطاعم والمنازل من طباخين وغاسلي الأواني والألبسة والأغطية؛ وحظر المال (le tabou de l'argent) أثار العداء ضد التجار، والصرافين، والمرابين وكل المتعاملين بالنقود، بما في ذلك الأجراء أو المأجورين (les salariés) ، وبالخصوص العاهرات اللواتي كن يحصلن على المال بطريقة غير سليمة(turpe lucrum) .

لم تكتف الكنيسة، حسب لوغوف، بتبني ذلك الإرث البدائي بعد أن ألبسته إيديولوجية جديدة، بل أضافت إلى قائمة المهن الممنوعة والمحتقرة مهنا أخرى، من بينها:

1- المهن التي لها علاقة بالفواحش الكبرى (les péchés capitaux) : فالدعارة مثلا اتخذت ذريعة لإدانة أصحاب الفنادق والحانات باعتبارها أمكنة لممارسة العهارة وشرب الخمر ولعب القمار، والشعراء المنشدين لتحريضهم على الرقصات الخليعة والفاحشة، والعاملات في قطاع النسيج لتعاطيهن العهارة بهدف تعويض الأجور الهزيلة التي يحصلن عليها من عملهن. وبالإضافة إلى ذلك، أدين التجار ورجال القانون من محامين وقضاة وعدول بتهمتي البخل والجشع (l'avarice et la cupidité)، والجنود بتهمتي الكبرياء والجشع (l'orgueil et la cupidité) ، والطباخون بتهمة الشراهة والمتسولون بتهمة الكسل.

2- المهن التي تتعارض مع بعض توجهات أو أركان العقيدة المسيحية. فقد تمت إدانة المهن المكسبة أو المربحة

(les professions lucratives) بناء على مبدأ "احتقار العالم" الذي يجب على كل مسيحي أن يتبناه؛ وأدين المرابون بناء على مبدأ الأخوة الذي يحث المسيحيين على "تقديم القروض بدون مقابل". وأخيرا، وانطلاقا من كون العمل الإلهي هو الخلق (la création)، اعتبرت كل مهنة لا تبدع أو تخلق شيئا إما رديئة أو دنيئة. وهذا يدل على أن إيديولوجية العصر الوسيط كانت مادية محضة، أي لا تعترف سوى بالقيمة المادية للأشياء، وتدين وتكره القيمة المجردة (la valeur abstraite) كما حددها الاقتصاد الرأسمالي.

ويذهب جاك لوغوف إلى أن ما ذكر أعلاه بشأن المهن يخص أساسا العصر الوسيط الأعلى أو العصور الوسطى الباكرة. ففي ظل هيمنة الطبيعة الريفية على مكوناته، احتقر المجتمع الغربي جل الأنشطة التي لم تكن على علاقة مباشرة بالأرض. ولكن ذلك لم يمنع الغربيين من احتقار عمل الفلاح، فأعمال السخرة كانت ممنوعة يوم الأحد، والشرائح العليا كانت لا تكترث بالعمل اليدوي. ورغم الحظوة التي كان بعض الحرفيين ينعمون بها نظرا لعلاقة حرفهم بالحرب والبذخ أو الترف مثل الحداد ومطرق السيوف والصائغ، فإن هؤلاء لم يكونوا يشكلون سوى قلة وسط الأعداد الهائلة من الحرفيين المحتقرين. وقد تغيرت ظروف أو أوضاع الحرفيين فيما بين القرنين 11 و 13 نتيجة للتطور الاقتصادي والاجتماعي الذي شهده الغرب المسيحي وما صاحبه من ازدهار مديني وتقسيم للزمن. ففي تلك المرحلة ظهرت مهن وفئات اجتماعية جديدة، ونجحت مجموعات سوسيو-اقتصادية في الحصول على المكانة المناسبة لقوتها، وتمت إعادة النظر في المواقف تجاه المهن وانخفض عدد المهن الممنوعة والمحتقرة.

يعزو المؤلف ذلك التحول في المواقف إلى تطور علم الكلام (la scolastique) الذي فصل بين المهن المحرمة لذاتها أو لطبيعتها والمهن المدانة حسب الحالات والمناسبات. وقد ترتب عن تغير مواقف علماء اللاهوت أن تقلصت لائحة المهن المحتقرة لطبيعتها ابتداء من منتصف القرن الثاني عشر. وفي القرن 13 ظهر نوع من التسامح مع بعض الأعمال التي لها علاقة بالربا، كما شمل التسامح الشعراء المنشدين والعاهرات ما عدا المتسكعين والتائهين (les vagabonds et les errants) الذين ظلوا خارج المجتمع المسيحي أو "عائلة المسيح" (familia christi). ومما يدل على التحول الحاصل في الدهنيات آنذاك أن أصبح الإكليروس ينظرون إلى منعهم من تدريس الطب والقانون المدني والاشتغال بالتجارة كإجراء معاكس لمصالحهم وليس كعلامة على رفعة شرف الطبقة الإكليركية. كما أن العديد من عمليات المنع لم تعد مرتبطة بالمحرمات والطابوهات، بل بالزمن والمكان. فتحريم العمل الليلي، مثلا، أريد به حماية المهن ومحاربة التزوير أو التقليد، ومنع ممارسة الأنشطة المهنية بأمكنة غير لائقة أو في الكنائس كان الهدف منه تكريس المكان المهني أو الورشة وإعطاء الأولوية للمتخصصين من التقنيين العلمانيين. ومما يشهد على حدوث تطور راديكالي حيال المهن، لجوء الأطراف الكنسية إلى الذرائع والأعذار والمبررات للسماح بممارسة بعض الأنشطة والمهن المحرمة. على رأس تلك المبررات نجد:

- الضرورة (la nécessité) : استعملت الضرورة لتبرير السماح للإكليروس الفقراء بالعمل وللفلاح، المهدد بهطول المطر، بجمع محصوله يوم الأحد.

- حسن النية (recta intentio) : اعتمد حسن النية لتبرير عمل صانع الأسلحة الذي يقوم بتجهيز مقاتلي القضايا العادلة، وكذا صناع وتجار اللعب المراد بها التسلية أو علاج الحزن ومحاربة الأفكار السوداء (les idées noires).

- المصلحة العامة: تطلب تحقيق المصلحة العامة قبول المهن الميكانيكية ومهن صناعة النسيج والألبسة باعتبارها ضرورية لسد حاجات الناس، والتجارة المتعلقة باستيراد المنتجات أو البضائع النادرة.

- العمل(le labeur): في إطار التشجيع على العمل أعيد الاعتبار لأساتذة المدارس الحضرية والجامعات. ولتجاوز إشكالية عدم أحقية الأستاذ في بيع العلم لأنه هبة إلهية، تم اعتبار الأجر الذي يحصل عليه تمرة لكده وليس ثمنا لعلمه.

للتتبع مسار التطور التي عرفته المواقف من المهن، اختار جاك لوغوف ثلاث حالات معقدة لمهن كانت تعتبر خطيرة على المجتمع لأن ممارستها لا يمكن أن تتم بدون ارتكاب الإثم:

1- الشعراء المنشدون (les jongleurs) الذين قسموا، في بداية القرن 13، إلى ثلاثة أصناف:

- البهلوانيون (les acrobates) الذين يقومون بالتواءات وحركات بهلوانية مخجلة.

- طفيليو القصور الذين كانوا يقضون وقتهم في نشر الوشاية بين المترددين على قصور الملوك والسادة.

- الموسيقيون الذين كان هدفهم تسلية الحاضرين أو المستمعين، وهم نوعان: نوع يرتاد الحانات والمراقص ويحث الناس على التهاون وارتكاب الفواحش، ونوع يتغنى بأناشيد البطولات والمفاخر (les chansons de gestes).

2- التجار : شكلت الأخطار المرتبطة بمزاولة مهنة التجارة والخسائر المترتبة عنها المبرر الأساسي الذي اعتمد لتبرير أرباح التجار، وخاصة تلك التي لها علاقة بالربا. وبالإضافة إلى ذلك أجمع علماء اللاهوت[*] والمعرفون[+] ورجال الكنيسة[o] بوجه عام على أحقية التاجر في الحصول على الربح كأجر على الخدمة التي يقدمها لغيره ما دام عمله يخدم المصلحة العامة.

3- العاهرات: ابتداء من القرن الثاني عشر أخذت العهارة تجد نوعا من التفهم لدى علماء اللاهوت. فقد أصبح بإمكان العاهرة التكفير عن ذنوبها بإعلان ندمها على ما فعلت والتصدق بالأموال المحصل عليها من مهنتها. كما تم إبداء بعض التسامح مع العهارة المرتبطة

---

[*] - St – Thomas d'Aquin (XIII e siècle)

[+] - Le confesseur Thomas de Chobham (XIII e siècle)

[o] - Le chanoine de Tournai Gilles de Muisit (XIV e siecle)

بالفقر والحاجة، في حين ظلت العهارة بهدف المتعة وما ارتبط بها من ربح مادي تعتبر فضيحة، وأصبحت تهمة ارتكاب الإثم والخطيئة موجهة بالأساس للعاهرة التي تتزين لخداع الزبون وجعله يدفع ثمنا مرتفعا. بهذا الاستدلال، القريب إلى العبث منه إلى المنطق، استطاع رجال اللاهوت إضفاء نوع من الشرعية أو المشروعية على نشاط طالما احتقر وحرم قبل نهاية القرن12.

هكذا، ونتيجة للتطور الحاصل في مواقف علماء اللاهوت تجاه المهن، لم تعد هناك مهنة تحول دون الخلاص، وأصبح من حق الجميع الانتماء إلى المجتمع المسيحي أو عائلة المسيح (la familia christi) .

يعزو جاك لوغوف هذا التحول الهام في الدهنيات إلى التحولات الاقتصادية وما ترتب عنها من تطور اجتماعي. فعندما كان المجتمع قرويا وعسكريا أي خاضعا لهيمنة الأرستقراطية العسكرية وملاك الأراضي بما في ذلك الإكليروس، تم احتقار أنشطة القن (le serf) ، ثم امتد الاحتقار ليمس المرتزقة أو المأجورين الذين تخلوا عن حريتهم واشتغلوا مقابل المال، وفئة العمال (laboratores) بصفة عامة باعتبارها أقل شأنا من فئتي المصلين (oratores) والمحاربين (bellatores) أي رجال الدين (le clergé) وشريحة الفرسان (la chevalerie) . وحتى بين هاتين الفئتين المهيمنتين لم تكن هناك مساواة، إذ لم يتوانى الإكليروس في إبداء احتقارهم للعمل العسكري الدموي، والتنديد بالفرسان الذين كانوا بالنسبة لهم حلفاء ومنافسين في نفس الوقت. وخلال الفترة التاريخية الممتدة من القرن11 إلى القرن13، تغير المشهد الاجتماعي نتيجة لما طرأ على الحياة الاقتصادية من تجديد بفعل التطور الحاصل في ميداني التجارة والتمدين. فقد ظهرت أنشطة جديدة أدت إلى ظهور شرائح اجتماعية جديدة: الحرفيون، التجار والتقنيون. لم تذخر هذه الفئات- التي فرضت نفسها ماديا- جهدا لإزاحة الشكوك التي كانت تلقي بضلالها على أنشطتها وتحول دون حصولها على الترقية الاجتماعية، ولتحقيق هذا الغرض لجأت إلى الدين الذي أصبح وسيلة ضرورية لكل ترقية مادية وروحية. وهكذا أصبح لكل مهنة قديس (un saint-Patron) يحميها ويضمن لها الشرعية.

هذا التحول الهائل لم يحدث، حسب لوغوف، بنفس الشكل و المقاييس والوثيرة في مجموع البلاد المسيحية. ففي إيطاليا مثلا تبنت الأرستقراطية بسرعة جزءا من نمط حياة الشرائح الاجتماعية الجديدة، فامتهان التجارة لم يعد، في نظر الأرستقراطي أو النبيل الإيطالي، أمرا غير مشرف. وقد انعكس هذا التحول في مواقف النبلاء على حياة الحرفيين والتجار الذين أضحوا، في منتصف القرن12، يتمتعون بحظوة كبيرة جدا في بعض المدن الإيطالية. أما في بقية أنحاء أوروبا-فرنسا خاصة- فقد ازداد تصلب النبلاء في عداوتهم واحتقارهم للعمل والعمال. وبالتالي، عرفت أوربا نوعين من الاحتقار: احتقار الأرستقراطية للعمال، واحتقار العمال للخاملين أو الكسالى.

ويذهب المؤلف إلى أن وحدة عالم الشغل ضد عالم الصلاة وعالم الحرب أو وحدة البرجوازية والجماهير العمالية ضد الكنيسة والأرستقراطية، حتى وإن وجدت، لم تدم طويلا. فقد أدى بروز فوارق بين الفئات الاجتماعية المكونة لتلك الوحدة على المستويين الروحي والمادي إلى حدوث انشقاق بين الشرائح العليا للمجتمع الحضري أو الأغنياء من جهة، والشرائح الدنيا أو الفقراء من جهة أخرى. ففي مدينة فلورنسا الإيطالية مثلا تأكد على المستوى المؤسساتي التباين بين المهن الرئيسية (les arts majeurs) والمهن الثانوية (les arts mineurs) التي لا يحق لأصحابها تولي الوظائف البلدية.

بالإضافة إلى التقسيم الأفقي، أشار صاحب الكتاب إلى اعتماد رجال العصور الوسطى التجزيء العمودي الذي تم على أساسه إنزال العديد من المهن إلى أسفل سلم التراتبية المهنية. ففي قطاع النسيج كان داعكو القماش (les foulons) أقل درجة من الصباغين والنساجين، وفي ميدان صناعة الأحذية يأتي الخصافون (les saveticrs) بعد الإسكافيين (les cordonniers) ، وفي مجال الطب كان الجراحون أقل شأنا من الأطباء.

ويذهب المؤلف إلى أن الفصل بين الفئات المحترمة والفئات المحتقرة لم يعد يقوم على أساس شرعية المهنة من عدمها، بل على أساس طبيعة العمل حيث أضحى الاحتقار لصيقا بالعمل اليدوي. وقد انعكس ذلك بشكل إيجابي على مكانة المثقفين وعلى رأسهم الجامعيين في الهرم الاجتماعي الذي أصبح يضم في قاعدته "العمال اليدويين" وفي قمته الأرستقراطية الجديدة المشكلة من كل الذين لا يشتغلون بأيديهم. ولم يقتصر الاحتقار على الفلاحين الذي سحقوا من قبل السادة وأنزلوا إلى أسفل البناء الاجتماعي، بل شمل أيضا بعض الفئات الغنية مثل الجزارين الذين فشلوا في تغيير المواقف تجاههم، فعبروا في القرنين14 و15 عن غضبهم بقيادة وتمويل العديد من الانتفاضات.

وقبل أن يختم هذه المحاولة، عاد المؤرخ لرصد تطور موقف الكنيسة التي، بعد أن ظلت منغمسة في عالم الفيودالية ومتبنية لمواقف السادة (les seigneurs) من المهن، حاولت أن تساير التحول الحاصل في عالم الشغل. فقبلت ارتقاء الشرائح الاجتماعية الجديدة، وشجعت وحمت التجار، والمجموعات السوسيو_مهنية موظفة الحجج النظرية والروحية لتبرير ما حصلت عليه تلك المجموعات من ترقية اجتماعية وبسيكولوجية. إلا أن ارتباط مصالح الكنيسة بمصالح الشرائح أو الطبقات الاجتماعية المهيمنة جعل تأثيرها على المواقف المتخذة في حق المهن والمهنيين جد محدود. وعلى ما يبدو لم تغير حركة الإصلاح الديني الشيء الكثير فيما يتعلق بالمواقف المتخذة تجاه المهن الفكرية والمهن اليدوية، فإذا كانت قيمة العمل قد تأكدت في العالم البروتستنتي الذي شهد سن العديد من القوانين، فإن ذلك لم يعمل سوى على إخضاع جماهير العمال للأرستقراطية والبرجوازية البروتستنتية.

وفي الختام خلص جاك لوغوف إلى القول بأن تاريخ المواقف المتخذة من المهن، الذي اعتبر فصلا من تاريخ الذهنيات، هو، في نهاية المطاف، فصل من التاريخ الاجتماعي.